مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١١، العدد ١، ربيع ١٤٣٦ هـ
صفحة ٨٣- ١٠٧

العزّة في الصحيفة السجادية ودراستها الفنية والجمالية

زهرا أميري[١*]، عباس عرب[٢]

١. دكتوراه في اللغة العربية وآدابها من جامعة فردوسي، مشهد
٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة فردوسي، مشهد

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٤/١٢/٢٧ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/٥/٣)

خلاصة القول

شهد عصر الإمام السجاد عليه السلام موجة الفساد العام لما أثاره الحكم الأموي الفاسد من العصبيات القبلية، وما روّجه من الانحرافات العقائدية، وما مارسه من تضعيف الروح الثورية. فعمل الإمام السجاد عليه السلام على مواجهة هذه الموجة وتوعية الأمة الإسلامية بالأدب، وهو أدب الدعاء؛ وبذل جهده فيه لبناء النفوس البشرية على أساس القيم الإسلامية الخالصة. فعمل على إعادة بناء روح العزة في النفوس لتشدّ بخالقه وتستشعر العزة به، ولاتذلّ أمام الجبابرة. هذا البحث يتطلّع إلى تحرّي قضية العزّة في أدب الدعاء عند الإمام السجاد عليه السلام، بأسلوب وصفي فني، فدرس جذور تقلّص القيم الإسلامية في زمن الإمام عليه السلام، ودور أئمة أهل البيت عليهم السلام والإمام السجاد عليه السلام خاصة في توعية الأمة والحيلولة دون انحدارها؛ ثم درس فقرات من بعض أدعية الصحيفة السجادية تقطع طريق تحقيق العزة بالله في النفوس، وتبعث على استشعار العزّة بالله، وتخلّصها من قيود احتمال الذلّ أمام الآخرين؛ بالنظر إلى ما قد وشّحها من عناصر جمالية من الإيقاع والصور الفنية والعناصر اللفظية. تشير النتائج إلى أنّ أدب الدعاء عند الإمام السجاد عليه السلام لا يتبع هدفاً عبادياً فحسب، بل وسيلة لطرح قضايا أخرى سياسية واجتماعية وأخلاقية وغيرها، ومن الأهداف الهامّة للدعاء عند الإمام عليه السلام استعادة العزّة إلى المجتمع الإسلامي، فيبعث الإنسان على التخلص من هوان التذليل أمام الغير، باستشعار العزة بالله وعبوديته سبحانه؛

الكلمات الرئيسة

العزّة، الصحيفة السجادية، الدراسة الفنية، أدب الدعاء، الإمام السّجاد عليه السلام.

* الكاتبة المسؤولة
Email: zahra_amiri110@yahoo.com

مقدمة

تتّسم الفترة التي عاش فيها الإمام السجاد عليه السلام بالإضطرابات السياسية وانكماش القيم الإسلامية، والانحرافات العقائدية والأخلاقية، لإصابة الأمة الإسلامية بداهية تسلط الأمويين ـ الذين أسلموا في آخر ساعات فتح مكة مرغمين ـ على الحكم، وما أجّجوه من الفتن والانحرافات، والعصبيات القبلية واستغلّوها لمصالحهم، وما انصرفوا إليه من التمييز العنصري، والإرهاب والتجويع، وتخدير الناس باسم الدين، وتضعيف الروح النضالية أمام الإضطهاد، ومحاولة تحطيم السلطان المعنوي لأهل البيت عليهم السلام والطعن فيهم، وما أسّسوه من العقائد المنحرفة لتبرير حكمهم الظالم، وما روّجوه من المفاسد والمحرمات والأدب المنحرف. فقام الإمام السجاد عليه السلام بحركاته الإصلاحية، استمراراً لما فعله آباؤه من توعية الأمة الإسلامية وتحذيرهم من الانحدار في هذه الانحرافات؛ ولكن تمّ هذا الأمر في قالب الأدب والدعاء، نظراً للإختناق الشديد الذي كان الأمويون يمارسونه بالنسبة للحركات الإصلاحية. وكان أدبه يستوعب الأدب السياسي والأدب الإجتماعي والأدب الأخلاقي وأدب الدعاء الذي هو موضوع هذه المقالة. فركز فيه على بناء الشخصية الإسلامية، وقصد إصلاح الفرد ليصلح به المجتمع، فعمل على توطيد الصلة بين الانسان وخالقه، لئلا يذلّ نفسه أمام من يملك القوة والمال. فجاء به في أدب الدعاء سامي المعنى، صادق العاطفة، في أسلوب طريف بديع وقوي جزل حافل بالإيقاع وبالصور الفنية والعناصر الجمالية اللفظية التي توشّح الأدعية.

إنّ الصحيفة السجادية كتاب لفت الأنظار إليه بمعانيه السامية وأساليبه الرشيقة. فتهافت الباحثون على البحث فيه لكشف جوانب جماله المعنوي، والتلذّذ بلذائذه العرفانية. فالبحوث تستهدف معانيها السامية في غالبها، فدُرست فيه شتى المواضيع والمجالات، من معرفة الإنسان، وطريقة الدعاء والتذلّل إلى الله عز وجل، والحركة الفكرية فيها، إلى المبادئ والأصول التعليمية وأهدافها، ومسألة القلب السليم، وحتى قضية حفظ الصحة، وما إلى ذلك من آرائه القيمة التي يحتاج إليها الإنسان في طريق سلوكه نحو ذروة الكمال الإنساني.

ومن الفاهيم الهامة المحورية في الصحيفة السجادية مسألة العزة التي حاول الإمام ترسيخها في النفوس البشرية ليهديهم من ذلّ طاعة الجبابرة والمخلوقين إلى عزّ طاعة رب العالمين، وهذا المفهوم القيم من المفاهيم الأساسية في ثقافة أهل البيت عليهم السلام ، ويجدر به أن

يبحث عنه في التراث المأثور عنهم، وهو مما تركّز عليه أسّ بناء الصحيفة السجادية. إنه عليه السلام يرى أساس العزّ في طاعة الله. وقد استهدف هذا البحث دراسة هذه القضية مواكباً لدراسة جوانبها الفنية، بهدف التعرّف على هذه القضية الهامة التي هي من أسس بناء الشخصية الإسلامية لدى الإمام عليه السلام وفي الصحيفة السجادية ـ التي هي من مصادرنا الإسلامية الأولى ـ وكشف جمالياتها والعناصر الفنية في صياغتها.

وأمّا بالنسبة لخلفية البحث فإن الجوانب الفنية والجماليات الأسلوبية لم يعن بدراستها في الصحيفة السجادية إلا في القليل النادر. ومن هذا القليل دراسة الإستعارة في قسم من أدعية الصحيفة (الأدعية ٤٤-٥٤) لمحسن الصبوري، ودراسة الفنون البديعية لمحقق آخر. ومن أفضل هذه الدراسات، محاولة محمود البستاني في كتابه «الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي»، وقد عني المؤلف في قسم من الكتاب بدراسة منهج الإمام السجاد عليه السلام في أدبه الدعائي. وقد سار بحثنا في هذه المقالة على نهج البستاني في دراسة أدب الدعاء عند الإمام السجاد عليه السلام.

يستوعب هذا البحث دراسة أوضاع المجتمع زمن الإمام السجاد عليه السلام، وجذور تقلّص القيم الإسلامية فيها، وأسباب ذيوع الانحرافات بمختلف مجالاتها، ودور أئمة أهل البيت عليهم السلام وخاصة الإمام السجاد عليه السلام في مواجهة موجة المجون العام؛ ثم أدب الدعاء عنده، الذي أخذه وسيلة لإصلاح المجتمع، فإنّه لا ينكشف لنا مدى عظمة عمل الإمام عليه السلام إلا بعد التعرّف التامّ على الأوضاع الثقافية والإجتماعية السيئة للمجتمع، التي عاش فيها الإمام السجاد عليه السلام وعانى منها، فحرص كلّ الحرص على مواجهتها وإصلاحها؛ وأخيراً دراسة قضية العزة في الصحيفة السجادية، على المستوى الفني والجمالي.

شحوب لون الإسلام زمن الإمام السجاد عليه السلام وجذورها

شهد هذا العصر تقلّص القيم الإسلامية وشحوب لونها استمراراً لتقلّصها بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم برجوع المجتمع الإسلامي إلى العادات الجاهلية، وبُعده عن روح الإسلام وتعاليمه. فقد نمت الروح القبلية وتعصباتها، وراج الفساد، ودبّ الضعف في عقائد المسلمين وظهرت الفرق المختلفة من الخوارج والمعتزلة والمرجئة، وضعفت روح الثورة على الظلم والفساد. ولهذه الظواهر جذور، إذا دقّقنا النظر ترجع إلى ما بدأ بعد النبي من الحوادث، وعبّرت عن

نفسها في أعمال الرجال الذين ظهروا بعد النبي ﷺ على الصعيد السياسي.

فقد كشفت السقيفة عن أن الروح القبلية لا تزال متمكنة في وجود كثير من المسلمين، حيث ظهرت التكتلات السياسية المختلفة؛ تكتّل الأنصار ضد قريش للخلافة، وتكتّل الأوس ضد الخزرج، فرأت قريش أن لا حق لغيرهم في الخلافة. فظهرت آثارها في الحوادث التي وقعت فيما بعد.

ثم خلق مبدأ الخليفة الثاني عمر في تقسيم بيت المال والتفضيل فيه أسوأ الأثر في المجتمع الإسلامي فيما بعد. فقد وضع الحجر الأساس للتمييز الطبقي في المجتمع الإسلامي، وقضى على تفوّق المزية الدينية. «ففضّل السابقين على غيرهم، وفضّل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافّة على الأنصار كافّة، وفضّل العرب على العجم، وفضّل الصريح على المولي» (ابن أبي الحديد، ١٩٦١، ج٨، ص١١١) «وفضّل مضر على ربيعة والأوس على الخزرج»؛ فهذا قوّى الأرستقراطية القرشية، وأرسى الصراع القبلي والعنصري بين المسلمين. فلمّا تولّى عثمان الحكم نهج هذا المنهج، ففتح أبواب الفتنة على المسلمين.

ثم تسرّب في نفوس المرشحين للخلافة، في الشورى الذي عينه الخليفة الثاني، التطلعُ إلى الخلافة، فظهرت الأحزاب القائمة على ولاء شخص ذي أهداف شخصية في الوصول إلى الحكم، واعترف معاوية بذلك قائلاً: «لم يشتّت بين الملسمين ولا فرّق أهوائهم إلا الشورى التي جعلها عمر في ستة نفر، فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه ورجاها لقومه، وتطلّعت إلى ذلك نفسه» (شمس الدين، دون تا، ص٢٢).

هذه الأحداث هي جذور الفتنة التي أصابت المسلمين زمن عثمان والحكام الأمويين بعده. وراح عثمان يغدق الصلات الضخمة على ذويه من أعيان قريش، وأعطاهم ولاية الأمصار الإسلامية، فتكوّنت طبقتان: ثرية وأخرى فقيرة، وكانت تتسع الهوّة بين الطبقتين يوماً بعد يوم. «فقد اتّضح في وقت مبكر أنّ عثمان ليس إلا واجهة يكمن خلفها الأمويون، وذلك أنّ عثمان أسند إلى آله وذويه الولايات الكبرى في دولة الخلافة، هي البصرة والكوفة والشام ومصر...» (شمس الدين، دون تا، ص٢٦).

لم يكن هؤلاء الولاة من ذوي السابقة في الدين والجهاد، بل كانوا متّهمين في دينهم، ومشهورين بفسقهم أحياناً. فتصرّف عثمان مع الشاكين المسلمين فيهم بعنف، فأمر بضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ونفى أبيذر، وضرب عمار حتى غُشي عليه، ووطأه

برجليه. فثارت المسلمون عليه ومنهم عائشة، وقتلوه.

فلمّا تزاحمت المسلمون على بيعة الإمام علي عليه السلام، أجرى الإمام إصلاحاته الثورية، فأعلن مبدأ المساوات في العطاء، كمبدأ النبي صلى الله عليه وآله فيه، وعزل ولاة عثمان على الأمصار، وولّى رجالاً من أهل الدين والعفة بدلاً عنهم، ونادى بمساوات المسلمين جميعاً في الحقوق والواجبات؛ فأُنزلت ضربة قاصمة على كبرياء قريش، فبدأت بالطغيان تحت ستار الثأر لعثمان. ومعاوية الذي ولّاه عمر البلاد الشامية، وولّاه عثمان الشام كلها، لم يخضع لحكم الإمام علي عليه السلام الذي انتخبه المسلمون، لمّا اعتبره تهديداً لمشاريعه في التسلّط على المسلمين.

لذلك مارس معاوية خطّة لمحق نزعة الحرية لدى الإنسان المسلم، منها سياسة الإرهاب والتجويع بالنسبة إلى المسلمين الذين لايتّفقون معه في الهوى السياسي. «وقد بلغ هذا الإرهاب حداً جعل الرجل يفضّل أن يقال عنه إنه زنديق أو كافر ولا يقال عنه إنه من شيعة علي عليه السلام». وقد كتب معاوية إلى ولاته: «لاتقبلوا شهادة أولاد علي وأحبائه وأشياعه وآله، وقرِّبوا أشياع عثمان، وانقلوا فضائله وأرسلوه إليّ». وعين صلات وجوائز للّذين كانوا ينقلون أحاديث في فضائل عثمان، فزادت الروايات في مكرمة عثمان. وكتب إلى عمّاله أن امحوا أسماء شيعة عليّ ومواليهم من الديوان وحرِّموهم من كل حقوقهم التي كانت لهم (انظر: أمين، ١٣٣٧، ص٣٢٠).

وسلك سبيل اشتعال العصبيات القبلية والتلويح لزعماء القبائل بالإمتيازات المادية والإجتماعية ليضمّن ولائها، كما أثار العصبيات العنصرية عند العرب عموماً ضد المسلمين غير العرب (الموالي)، وكذلك كان يفعل ولاته على الأمصار، وشعراء بلاطه كالأخطل، ومغنّوه كأويس (شمس الدين، دون تا، صص٦٣-٧٠).

وحاول أن يتغلَّب على مشاعر المسلمين ضده ـ بأنه وآله اعتنقوا الإسلام في آخر ساعة مرغمين ـ وكذا لتحطيم السلطان المعنوي لأعدائه، باستخدام أشخاص من الصحابة والتابعين يضعون روايات في طعن علي عليه السلام والبرائة منه. فراج لعن الإمام علي عليه السلام على كل منبر، «وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه ـ وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم ـ في تاريخه ما يناسب هذا الخبر وقال: إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرّباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم» (ابن أبي الحديد، ١٩٦١، ج١١، ص٤٦). وجُعلت روايات في فضائل عثمان ومعاوية.

ومن خطّته العمل على التخدير باسم الدين، بتأسيس الفرق الدينية السياسية التي تبرّر

سلطة الأمويين وأعمالهم. منها المرجئة. فإنهم اعتبروا الإيمان عملاً قلبياً لا يحتاج إلى التعبير عنه بالأفعال. فالمعتقد بالإسلام يبرِّر كل أعماله القبيحة وأقواله المادية بإيمانه القلبي. والنتيجة أن الثورة على الأمويين لاتجوز مهما ارتكبوا من الكبائر. وروّجوا عقيدة الجبر، ليشيروا إلى أنّ سلطتهم قضاء الله، ولابدّ للمسلمين من احتماله، واضطهدوا عقيدة القدرية القائلين بالإختيار ودعاتها.

وقد عمل الإمام علي على حفظ المجتمع من الانحراف، والدين من التحريف، حتى استشهد، وخلفه الإمام الحسن عليه السلام فجعل يهيئ المجتمع للثورة على الحكم الأموي، وكذلك الإمام الحسين عليه السلام . فإنه رأى أن يهيئ المجتمع وخاصة العراق حتى يموت معاوية.

فلما مات معاوية وجاء يزيد، عالن بارتكاب المحرمات، فقد كان «صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود والمنادمة على الشراب... وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستُعملت المناهي، وأظهر الناس شرب الشراب... وكان سيرته سيرة فرعون، بل كان فرعون أعدل منه...» (المسعودي، ١٣٤٦، صص٩٤-٩٥).

وحاول أن يرغم الإمام الحسين عليه السلام على البيعة، إلا أنه رفض بيعته. فخرج عليه السلام على الحكم الأموي الفاسد، لطلب الإصلاح في أمة جدّه. فكانت نتيجة ثورته : «١. تحطيم الإطار الديني المزيف الذي كان الأمويون وأعوانهم يحيطون به سلطانهم... ٢. بثّ الشعور بالإثم في نفس كل فرد... ٣. فتح عيني الانسان المسلم على عوالم مضيئة باهرة ٤. بعث الروح النضالية في الانسان المسلم» (شمس الدين، دون تا، ص١٣٤). وهيجت ثورة الإمام الحسين عليه السلام الروح الثورية التي حاول الأمويون القضاء عليها، فاستمرَّت الثورات بعدها، مع أنها كانت تفشل دائما، منها ثورة المختار، وثورة التوابين، وثورة زيد بن علي، عليه السلام و... ومنها ثورة أهل المدينة على يزيد، لما رأوا منه من انتهاكه للحرمات، فأسرف جند يزيد في قتل أهل المدينة ونهبهم، واستشهد فيها زهرة أهل المدينة من الفرسان ومن خيرة أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ورموا الكعبة بالمجانيق والنار فانهدمت.

فلمّا هلك يزيد، واعترف ابنه معاوية بأن جدّه وأباه نازعا الأمر أهله وانتهكا الحرمات، فصارا إلى عذاب الله، وامتنع عن قبول الخلافة، جاء المروان بن الحكم إلى الحكم ـ الحَكم هو الذي كان يؤذي النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أخرجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة، فلما ولي عثمان إلى الحكم «أعاد الحكم... وأعطاه مالاً كثيراً، واتّخذ ابنه مروان وزيراً له... وولّاه معاوية المدينة مرتين» ـ

فانتقلت الخلافة إلى آل مروان، وكانت الأمة الإسلامية تحترق من معارك دموية والعصبيات القبلية. وجاء أفسق الناس من بني‌أمية إلى الحكم، مثل سليمان بن عبدالملك ويزيد بن عبدالملك والوليد بن يزيد، المشهورين بالمجون والخلاعة وانتهاك الحرمات وفرض ضرائب فادحة على الموالي، والإمعان في التنكيل بالعلويين وشيعتهم (انظر: حسن إبراهيم، ١٩٥٣، صص٣٥٠-٣٦١).

وقضى بني العباس عليهم بعد أن أدخلوا فساداً كبيراً فيما بين الأمة الإسلامية في عقائدهم وسلوكهم، وبعد أن نشروا الغناء واللهو والأشعار الفاسدة والمغنّين فيما بين الأمة، وحوّلوا الخلافة بالملك، فتشبّهوا بالملوك، واتّخذوا قصوراً في غاية الأبهة والتجمُّل.

دور أئمة أهل البيت عليهم السلام الثقافي والإمام السجاد عليه السلام خاصة

في حين صبغ الأمويون المجتمع الإسلامي بصبغة المجون والزيغ عن المبادي الإسلامية، وروّجوا فيها أنواع الفساد والعقائد الفاسدة، وسبّبوا ذيوع شعر الخمر والجنس واللهو والصيد والغزل الإباحي والترف ومدح السلاطين الفاسقين والشعر العنصري والهجائي والنقائض ونحوها، عمل أئمة أهل البيت عليهم السلام في حفظ المجتمع عن التغمّس في المفاسد والسعي وراء المبادي المنحرفة، وفي ترسيخ المبادئ الإسلامية الصحيحة في نفوس الأمة بنشر حكمهم، ونشرها دعاة مدرسة أهل البيت عليهم السلام فيما بين الأمة؛ وفي وقت سام الأمويون المجتمع الإسلامي الذلَّ، عمل أئمة أهل البيت عليهم السلام في شدّ النفس الإنسانية بخالقها العزيز لتستشعر العزّة به.

أما الإمام السجاد عليه السلام «فلقد واصل جهود والده الإمام الحسين عليه السلام لاستعادة العزّة إلى المجتمع الإسلامي ولكن بأسلوب يتناسب مع طبيعة الفترة التي عاشها. بعد أن انكسر حاجز الخوف والإرهاب بفضل تضحيات والده الحسين عليه السلام ، عمل زين‌العابدين عليه السلام على شد أفراد المجتمع بالله ليقطع خطوة رحبة أخرى على طريق تحقيق العزّة والتخلّص من الذّل» (آذرشب، ١٣٨٢، ص٢٣٥).

ومما عمل الإمام السجاد عليه السلام في هذا المجال شراء عبيد وتعليمهم وثم تحريرهم. «ومنها تربية فئة صالحة ونشرها في الأقطار لتكون قدوة لأخلاق مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، ومنها نشر الدعاء والإبتهال على ألسن الناس» (آذرشب، ١٣٨٢، ص٢٣٦).

وإذا كان الأدب العقائدي المنحرف انتشر في هذا العصر، واستبدل القيم الإنسانية بقيم عنصرية، قابل الإمام السجاد عليه السلام كل أولئك «بالتوفر على أدب خاص يتّجه من جانب إلى

نقد الأوضاع المنحرفة، ويتّجه من جانب آخر إلى بناء الشخصية الإسلامية في المستويين الفردي والإجتماعي، بحيث يمكن القول بأنّ أدب السجاد عليه السلام كان تجسيداً للحركة الإسلامية مقابل الأدب الدنيوي الذي بدأ ينحرف مع انحرافات السلطة وينحدر إلى ما هو عابث ومظلم ومنحرف...» (البستاني، ١٤١٣، ص٣٥٣).

يستوعب أدب الإمام السجاد عليه السلام الذي قابل بها الانحرافات السياسية والاجتماعية والعقائدية المجالات الأتية: (انظر: البستاني، ١٤١٣، صص٣٥٤-٣٦٢).

١- الأدب السياسي: الذي تبين موقفه من السلاطين. فمادام الانحراف بدأ يفرز خطوطه بوضوح في هذا المجتمع، تولّى الإمام عليه السلام وظيفة التوعية الإسلامية حيال السلطة الزمنية المنحرفة، وحذر الإسلاميين من التعاون مع السلطة، مثلما حذرهم من الانحدار في الفتن والإضطرابات التي واجهها هذا العصر، ومن الانقياد وراء متاع حياة الدنيا وبهارج السلطة والجاه والموقع. وكان يستثمر جميع الفرص التي تتيح له أن يمارس عملية التحذير من التعاون مع الظالمين سواء أكان ذلك في صعيد الخطب والتوصيات العامة، أم كان في صعيد التوعية والتحذير لأفراد بأعيانهم، مثل كتاباته لهم.

٢- الأدب الاجتماعي: وهو الذي يعني بالعلاقات الاجتماعية إلا أنها تتجاوز ما هو خاص (مثل السياسة) إلى مطلق العلاقات الاجتماعية... وقد أتيح للإمام السجاد عليه السلام أن يتوفّر على صياغة بحث أو مقال اجتماعي يتناول حصيلة أو مختلف العلاقات التي تربط الفرد بسواه؛ حيث صاغ خمسين مادة اجتماعية تلخص علاقة الإنسان بالله والفرد والمجتمع، أي إنها ترسم التصوّر الإسلامي لعلاقة الإنسان، أي مسؤوليته حيال الله وحيال نفسه وحيال الأخرين.

٣- الأدب الإخلاقي: هو مايتّصل بالسلوك العام أو ما يسمّى بالبعد الأخلاقي من الشخصية، وهذا ما يتوفّر الإمام أيضا على طرحه في أشكال متنوعة من التعبير؛ خطابة، رسالة، خاطرة، دعاء،... وهذا من نحو تعامله مثلاً مع متاع الحياة الدنيا، فوصّى إلى الزهد حيال المتاع المذكور...

٤- أدب الدعاء: وهو ما نتكلّم عنه في هذا المجال:

أدب الدعاء عند الإمام السجاد عليه السلام

أدب الدعاء هو نوع هام من الأدب في تراثنا الأدبي إلا أنه قلت العناية بأدبه والنظرة إليه من

حيث إنه نوع أدبي بما فيها الصحيفة السجادية؛ وقلما درست قيمه وسماته الفنية مع أنه لفت الأنظار إليه بمضامينه السامية. ويعدّ الدعاء عند الإمام السجاد عليه السلام متفرداً من حيث الكم، ومن حيث الكيف، والتنوع في أشكال الدعاء، بحيث إنه تناول المفاهيم والتعليمات السياسية والإجتماعية والأخلاقية في شكل أدبي هو الدعاء، وبذلك تجاوز غرض توجه الإنسان إلى الله ومناجاته وطلب الحوائج منه إلى مطلق الأغراض التي تصاغ فيها سائر الأنواع الأدبية. يقول الدكتور البستاني: «يظلّ الدعاء عند الإمام السجاد عليه السلام وسيلة فنية لطرح القضايا الفردية والاجتماعية والكونية والتواصل الوجداني بشكل عام وإذا كان الدعاء في غالبيته تتمّ صياغته للتواصل الوجداني أي توجه الإنسان إلى الله لإشباع حاجاته الروحية مثل رضا الله تعالى ومناجاته وتحميده و...فإنه لدى الإمام السجاد عليه السلام تجاوز هذا الصعيد الوجداني إلى مطلق الصعد التي تصاغ فيها الخطب والرسائل والمقالات والخواطر والأحاديث، أي إن الدعاء يقوم بمثل ما تقوم به الخطبة أو الرسالة أو الحديث من حيث طرح القضايا العبادية المختلفة (سياسياً، اجتماعياً، عسكرياً، أخلاقياً...) (البستاني، ١٤١٣، ص٣٦٣). إذن ينبغي أن يوقَف عند ظاهرة الدعاء عند الإمام السجاد عليه السلام لتفصيل الحديث عنه فكرياً وفنياً، فإنه ظاهرة متفردة «من حيث الكم، ومن حيث التنوع، ومن حيث الوظيفة الإجتماعية، ومن حيث السمات الفنية التي واكبت هذا الشكل الأدبي» (البستاني، ١٤١٣، ص٣٦٣).

البناء الفني للأدعية

يظلّ البناء الفني للأدعية في الصحيفة السجادية متّسماً بسمات الجودة والإتقان والمتانة، من منظار النقد الأدبي.

فمن حيث الشكل الظاهري يلاحَظ أن الأدعية تستهلّ بتحميد الله تعالى في سطور طالت أو قصرت، أو يتخللها التحميد لله على الأقل؛ ويتخللها الصلاة على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وبما أن هناك أدعية تخصّ الحاجات الفردية فحسب، فحينئذٍ ربط الحاجات الفردية بالتحميد لله تعالى وبالصلاة على النبي وآله صلى الله عليه وآله وسلم، يجعل الأدعية ذا طابع سمّاه الدكتور البستاني "الطابع الموضوعي" (انظر: البستاني، ١٤١٣، ص٣٦٦)، والمقصود به أن الهدف العبادي المحض سوف يطبع هذه الأدعية المشتملة على التمجيد والصلاة، في جميع أشكالها، فتتصاعد على الحاجات الفردية المحضة، وهذا ما يكسب الأدعية أهمية كبيرة دون أدنى شك.

أما في أسلوب هذه الأدعية، ففي مفرداتها تُلاحَظ الدّقة في اختيار أدقّ الكلمات، مع إيحائها، وسهولتها، وألفتها، دون غرابتها ووحشيتها، وطرافتها، واستعمالها، وإفادتها في نقل الصورة إلى القارئ وإكمال المعنى المراد، والتكرار حيث يستدعى الموقف، وعدم التكرار حيث يخلّ، وفي عباراتها: الانسياب في سهولة، وعدم الشعور بالثقل في النطق بها، والوضوح والدلالة الظاهرة على المعنى المراد، والقوّة، لاستخدام الخيال والكلمات الطريفة، مع مراعاة قواعد علم المعاني، والمحسنات البديعية التي تأتي عفواً غير متكلّف ولا متصنّع، وخاصة السجع في فواصل الدعاء، ووحدة النسج في كل دعاء، والتلاؤم بين الألفاظ والمعاني، والوفاء بالمعنى، وتبيينها إبانة قوية دون الغموض المخلّ. كما يلاحظ في معانيها الطرافة والابتكار والبداعة، مع الشعور الإنساني الرفيع والطبيعة الإنسانية السامية، والعمق والغوص دون السطحية، والشرف في هذه المعاني، والأثر الكبير الذي تحدث في النفس، والشعور العظيم الذي توحيه.

ويلاحظ متذوّقُ هذه الأدعية، عاطفة صادقة قوية تندفق من قلب طاهر، تشقّ القلوب وتدخل صميمها، مستمرة في كل أجزاء الأدعية، غير مختلفة في نسجها.

العزّة في الصحيفة السجادية

أشرنا إلى أن الفساد وبالتالي الأدب العقائدي المنحرف بدأ يتحرّك في هذا العصر ويشيع بين الأمة الإسلامية في عنفوان شبابها، بسبب فساد البلاط الأموي، والذي أجّجوها من المجون والأحقاد والعصبيات. ومن جانب آخر، إن الإختناق الشديد الذي مارسها الأمويون، وحقدهم الشديد بالنسبة للعلويين، وقضائهم الهائل على الحركات الإصلاحية والثورية أمام مفاسدهم، كانت تحول دون التصدي الفعلي لهذه المفاسد ومسبّبيها. فتوفّر الإمام السجاد عليه السلام على العمل الثقافي لينحّي الأمّة عن أمواج الفساد، فواكب حركاته الإصلاحية الثقافية، موجة المجون العام.

وكانت أدعيته مواصلة لجهود والده الإمام الحسين عليه السلام لإعادة العزة إلى المجتمع الإسلامي بالأسلوب المتناسب مع طبيعة عصره؛ فسعى في سبيل شدّ أفراد المجتمع بالله بأدعيته، ببيان يعلّمهم العزة، و«في أساليب تجعل الأفراد ـ حين يتلونها ـ يستشعرون العزة في الله، والقوة بالله، والغنى بالله، وتربّيهم على أن لا يذلّوا أنفسهم في سبيل استرضاء من بيده القوة والمال، ولايبيعوا ذممهم بعرض زائل من الحياة الدنيا. ولو أمعنّا النظر في أساليب هذه الأدعية ومضامينها، لوجدناها تركز بأجمعها على مخاطبة النفس البشرية في سياق خطابها مع الله سبحانه، لتنقذ هذه النفس الأمارة من الذلّ والضعف والانحدار» (آذرشب، ١٣٨٢، ص٢٣٦).

وفيما يلي نركز على المجالات التي تتصاعد منها شميم العزة من الصحيفة، وتهدف إلى بعث روح العزة بالله في مخاطبيه، مع دراسة فنية لجمالياتها:

ننظر في دعائه الأول في التحميد لله عز وجلّ: «... والحمدلله الذي اختار لنا محاسِن الخُلق، وأجرى علينا طيبات الرزق، وجعل لنا الفضيلة بالمَلَكة على جميع الخَلق، فكلُّ خليقته منقادة لنا بقدرته، وصائرة إلى طاعتنا بعزّته، والحمدلله الذي أغلق عنّا باب الحاجة إلا إليه، فكيف نُطيق حمده؟ أم متى نؤدي شكره؟ لا، متي؟ والحمدلله الذي ركب فينا آلات البسط، وجعل لنا أدوات القبض، ومتَّعَنا بأرواح الحياة، وأثبت فينا جوارح الأعمال، وغذّانا بطيبات الرزق، وأغنانا بفضله، وأقنانا بمنّه، ثمّ أمرنا ليختبر طاعتَنا، ونهانا ليبتلي شكرنا، فخالفنا عن طريق أمره، وركبنا متون زجره، فلم يبتدرنا بعقوبته، ولم يعاجلنا بنِقمَته، بل تأنّانا برحمته تكرّماً، وانتظر مراجعتَنا برأفته حلماً. والحمدلله الذي دلّنا على التوبة التي لم نُفِدها إلا من فضله، فلو لم نعتَدِد من فضله إلا بها لقد حَسُنَ بلاؤُهُ عندنا، وجلَّ إحسانُهُ إلينا، وجَسُمَ فضله علينا، فما هكذا كانت سنّتُه في التوبَة لمن كان قبلَنا، لقد وضع عنّا ما لا طاقةَ لنا به، ولم يكلّفنا إلا وُسعاً، ولم يُجشِّمنا إلا يُسراً، ولم يَدَع لأحد منا حُجَّةً ولا عُذراً، فالهالك منّا من هلك عليه، والسعيد منّا من رغب إليه...».

إنه شدّ الإنسان بالله عن طريق تذكار نعم الله على العباد، ما يجعل الإنسان يستشعر العزّة به، وبيان ما يعود تحميد الله على الإنسان بالنفع، وذلك بالتدرّج في بيان ما أنعم الله به على العباد، فأعطاه مَحاسن الخُلق عند خَلقه، ثم الطيب من الرزق، ثم المُلك على جميع الخَلق، ثم انقياد خلائقه له، ثم افتقاره إليه دون خلقه، وأعطاه قدرة القبض والبسط، وبعد ذلك أمر عباده ونهاهم، فخالفوه، غير أنه لم يعاجل بالعقوبة، بل تأنّاهم برحمته، بل انتظر رجوعهم إليه، بل دلّهم على التوبة إليه، كل ذلك بعد أن وضع عنهم ما لا طاقة لهم به، وبهذا يفهَم كبيرُ فضله وإحسانه؛ وهكذا تصبح النعم أكبر وأكبر كلما نسير إلى الأمام ونقرأ أكثر، حتى نلمس حشداً متكاثفاً من النعم أمامنا. وهذا يبين أن الدعاء ليس لدى الإمام «مجرد عرض للمضمونات، بل إخضاعها لهيكل هندسي متقن يرتبط كل جزء بسابقه ولاحقه، ويتنامى كل جزء وفق مراحل النموّ النفسي» كما يقول الدكتور البستاني (انظر: البستاني، ١٤١٣، ص٣٧٠).

وكذلك تحتشد تلك الفقرات بعنصر الصورة، لكن دون أن تتكثّف النسبة، وذلك مثل التمثيل في: (إغلاق باب الحاجة) والاستعارة في (ركوب متون زجره) و(إجراء طيبات

الرزق)، وكذلك تصاوير متلوّنة من رحمة الله: (تركيب آلات البسط)، و(تمتيعنا بأرواح الحياة)، و(إثبات جوارح الأعمال)، و(تأنيه عباده برحمته)، و(انتظاره مراجعة عباده برأفته)، و(عدم ابتداره بالعقوبة)، و(وضعه ما لا طاقة لهم به عنهم)، و(جسومة فضله على عباده)، و(عدم تكليفهم إلا وسعاً)، و(عدم تجشيمهم إلا يسراً) و... تزيد النصّ جمالاً.

وكذلك إن عناصر"التقابل والتضادّ" في مثل: (القبض والبسط)، و(أمرنا ونهانا)، و(أمره وزجره)؛ و"التكرار"، مثل تكرار عبارة: "الحمدلله الذي..."؛ والإتيان بالمترادفات للتأكيد على رحمته الواسعة في عبارات مثل: (وضع عنّا ما لا طاقة لنا به، ولم يجشّمنا إلا يسراً، ولم يدع لأحد حجة ولا عذراً)؛ و: (حسُنَ بلاؤه عندنا، وجلّ إحسانه إلينا، وجسُمَ فضله علينا) و(لم يبتدرنا بعقوبته، ولم يعاجلنا بنقمته، وتأنّانا برحمته تكرّما، وانتظر مراجعتنا حلماً)؛ و"التجنيس" في مثل: (أغنانا وأقنانا، وهالك وهلك، والخُلق والخَلق)؛ كل ذلك قد لعب دوراً كبيراً في إضفاء الجمال على العبارات المشار إليها. وقد أضفى العنصر الإيقاعي جمالاً مضاعفاً على الفقرات. وذلك برعاية السجع في الفواصل. وإليك منها: (الخَلق والخُلق والرزق) و(بقدرته وبعزّته)، و(طاعتنا وشكرنا)، و(أمره وزجره)، و(عقوبته ونقمته)، و(تكرّماً وحلما)، و(عندنا وإلينا وعلينا وقبلنا)، و(وسعاً ويسراً)، و(عليه وإليه). وهناك السجع في الفواصل حيث الفكرة واحدة، وعدم السجع في مواضع الحديث عن التعدد والتنوع؛ وذلك مثل التنوع في الفواصل في الحديث عن نعم الله المختلفة علينا: (ركب فينا آلات البسط، وجعل فينا أدوات القبض، ومتّعنا بأرواح الحياة، وأثبت فينا جوارح الأعمال، وغذّانا بطيبات الرزق).

وتارة نرى الإمام السجاد عليه السلام يتّجه إلى بناء الشخصية الإسلامية، وترسيخ روح العزة والاستغناء بالله، وتوطيد الصلة بين العبد وربّه، بِعَدّ أكمل الصفات الإنسانية في قالب وصف أكمل الناس، أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة عليه: «اللهم فصلّ على محمدٍ أمين وحيك، ونجيبك من خلقك، وصفيك من عبادك، وإمام الرحمة وقائد الخير، ومفتاح البركة، كما نصب لأمرك نفسه، وعرّض فيك للمكروه بدنه، وكاشف في الدعاء إليك حامّته، وحارب في رضاك أسرته، وقطع في إحياء دينك رَحِمَه، وأقصى الأدنين على جُحودهم، وقرّب الأقصَين على استجابتهم لك، ووالى فيك الأبعدِين، وعادى فيك الأقربين. وأدأب نفسَه في تبليغ رسالتك، وأتعبها بالدعاء إلى ملّتك، وشَغَلَها بالنُصح لأهل دعوتك، وهاجر إلى بلاد الغربة، ومحلّ النأي عن موطن رحله، وموضع رجله، ومَسقَط رأسه، ومَأنَسِ نفسه، إرادةً منه لإعزاز

دينك، واستنصاراً على أهل الكفر بك، حتى استتبّ له ما حاول في أعدائك، واستتمَ له ما دبَّرَ في أوليائك، فنَهَدَ إليهم مُستَفتِحاً بعونك، ومتقوّياً على ضعفه بنصرك، فغزاهم في عُقر دارهم، وهجم عليهم في بحبوحة قرارهم، حتى ظهر أمرُك، وعلَت كلمتُك، ولو كره المشركون. اللّهم فارفعه بما كدَح فيك إلى الدرجة العليا من جنّتك...»

إنه ترسيم السمات التي تطبع بها شخصية النبي ﷺ في مجاهداته لإعلاء كلمة التوحيد ونشر دعوته، بحيث يمكن للملاحظ في هذه العبارات أن يستخلص منها الطابع العام لشخصية النبي في جهده الدؤوب من أجل نشر الدين الإسلامي، الشيء الذي يجدر بكل قائد إسلامي بل بكل مسلم أن يستضيء به في سبيل التحفظ على دينه.

لنمعن النظر في تعابير النص، من نحو: (نصَبَ لأمرك نفسه، وعرّض فيك للمكروه بدنه، وحارب في رضاك أسرته، وقَطَعَ في إحياء دينك رحمه، وأقصى الأدنين على جحودهم، وعادى فيك الأقربين، وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك، وأتعبها بالدعاء إلى ملّتك، وهاجر إلى بلاد الغربة ومحل النأي عن موطن رحله، وغزاهم في عقر دارهم، و...) تكشف بأجمعها عن حرص النبي ﷺ كل الحرص على المجاهدة في تبليغ ما جعل الله على عاتقه من نشر دعوته وإعزاز دينه، وعبارات: (موطن رحله، وموضع رجله، ومسقط رأسه، ومأنس نفسه)، تصاوير متتابعة تلقي ظلالَ كبيرِ أنسٍ وأريحيةٍ وطمأنينةٍ كفّ النبي عنها في سبيل إنجاز رسالته. فالعبارات هذه ساهمت على توفية المعنى حقّه، بعبارة صادقة قوية حارّة مؤثرة مستمرّة في كل العبارات.

والنص قد زُوّد بصور أخرى غير ما ذُكر، نحو: إمام الرحمة، وقائد الخير، فالمعنى أن النبي ﷺ بلغ من الرحمة والخير حداً جعله إماماً للخير والرحمة، وقائدهما، فضلاً عن أهل الخير والرحمة. ومن الصور الموحية: (مفتاح البركة)، الذي يعبّر عن استيعاب البركات بأجمعها في وجوده؛ و(عقر دارهم، وبحبوحة قرارهم) هما تصويران لغاية ذلّ عدو الإسلام.

كما تشير أساليب الحصر إلى خلوصه الكامل في إنجاز مهمة تبليغ الرسالة، وهي تقديم حروف الجر ومتعلقات الفعل في: (نصب "لأمرك" نفسه، وعرّض "فيك" للمكروه بدنه، وكاشف "في الدعاء إليك" حامّته، وحارب "في رضاك "أسرته، وقطع "في إحياء دينك" رحمه، ووالى "فيك" الأبعدين، وعادى"فيك" الأقربين). كما يوجد في هذه العبارات الاحتراس عن غير المعنى المراد.

وبما أن النص يدور حول الحديث عن الشيئين الضدين: ناصر الإسلام ومحاربه، حفل بعنصر التضاد، نحو: (أقصى وقرّب، الأقصين والأدنين، والأقربين والأبعدين، ووالى وعادى،

وأعدائك وأوليائك، والمتقوي والضعف)، مما يلقي ظلّ الصراع بين أعداء الإسلام وأوليائه.

وعُني بالإطناب والتعبير عن معنى واحد بعبارات متنوعة، لتقرير المعنى في النفس، وللتأكيد على غاية جهد النبي وإخلاصه، وسعيه وراء هدفه السامي. كما تُلاحظ في النص العناية الضخمة بعنصر الإيقاع، بحيث نجد كل فئة من الأسطر يتناسق مع بعض من خلال وحدة القافية والتوازن، وأحياناً من خلال تكرّر بعض الكلمات، بحيث نجد بعض الأسطر وكأنها بيت شعر.

وله عليه السلام في تربية الإنسان على العزّة، والاستغناء بالله عن الناس، من دعاء مكارم الأخلاق: «اللهم اجعلني أصول بك عند الضرورة، وأسألك عند الحاجة، وأتضرّع إليك عند المسكنة، ولاتفتنّي بالاستعانة بغيرك إذا اضطررتُ، ولا بالخضوع لسؤال غيرك إذا افتقرتُ، ولا بالتضرّع إلى مَن دونك إذا رَهِبتُ، فأستحقَّ بذلك خذلانك ومنعك وإعراضك، يا أرحم الراحمين».

إنه توطين النفس على الاستعانة بالله والتضرّع إليه عند الحاجة دون الناس، بسبب ترتّب إعراض الله عن العبد، عند خضوعه لسؤال غير الله.

والخصيصة الفنية الأولى في النص هو التعبير عن معنى "ضرورة إظهار الحاجة إلى الله دون الناس" بشتّى الطرق، وذلك للتأكيد على أهمّية ذلك المعنى، ولتثبيته في نفس المتلقّي.

والخصيصة الفنية الثانية هي عنصر الإيقاع في مستويين: ١. توحّد الفواصل في الفقرات ذات فكرة واحدة، تبعاً لوحدة فكرتها، مع تماثلها في الطول أو تقاربها، حتى لتشبه الفقرات أبيات شعر ٢. التجانس الصوتي من خلال تكرار بعض الكلمات في الفقرات المتوحّدة الفكرة، مثل تكرار "عند" في ثلاث فقرات متحدة في فكرتها، وتكرار "إذا" في فئة أخرى من الفقرات المتكوّنة من ثلاث فقرات تتحد فكرتها؛ وتكرار "ب" في نفس الفقرات، وهناك أيضاً من جانب ثالث، تقفية الكلمات في أكثر من الفواصل، وذلك في: (خذلانك ومنعك وإعراضك) التي فيها التسجيع في غير الفواصل.

وله عليه السلام من نفس الدعاء، في طلب الاستغناء بالله، من الله: «اللهم صلّ على محمد وآله، وصُن وجهي باليسار، ولا تَبتذِل جاهي بالإقتار، فأستَرزِقَ أهلَ رزقك، وأستَعطيَ شرار خَلقك، فأفتَتِنَ بمَدح مَن أعطاني، وأبتَليَ بذمّ من منعني، وأنت من دونهم وليّ الإعطاء والمَنع».

إنه توجيه المتلقي نحو أنّ اليسار يصون ماء الوجه، وأن الإقتار يذهب به، الشيء الذي يحرّض النفوس على الجهد في سبيل النيل إليها، فتحصل به صيانة وجهها.

ومن حيث القيم الفنية، فالملاحَظ في هذه الفقرة توازنُ كل فقرتيها، وتناسق كل فقرة مع الآخرة من خلال طولها وأوزان كلماتها، فتشبه أبياتاً من الشعر؛ وكل من هاتين الفقرتين المشابهة للفقرة الآخرة في وزنها ورويها، مترادفة مع الآخرة من حيث معناها، فهي بيان لها، ومن هنا جائت متوازنة معها، إلا في الفقرة الأخيرة، فهي ليست معها فقرة آخرة تتوازن معها، بسبب أنها الحديث عن التفرّد والتوحّد، تفرّد الله سبحانه وتعالى في الإعطاء والمنع، وهذا يقتضي عدم تقارنها بفقرة آخرة.

والصورة عنصر آخر في النص، وهي: "صن وجهي باليسار"، فقد شبّه الإمام عليه السلام عزة الإنسان وكرامته بماء في الوجه، يريقُه الإقتار، ويصونه اليسار، فاليسار مثل شيء يحول دون ماء الوجه أن يراق...

وانظر في هذا النص، وما فيه من جمال التعبير وسموّ المعنى، ما يجعل الانسان يعظّم أمام قائله العظيم، وروحه المتعالي، فإنه لا ينبعث معانٍ بهذا السمو والجمال والعظمة إلا من الذي أذهب الله عنه الرجس وطهّره تطهيرا، مع أنه سهلٌ بسيط في عباراته وألفاظه: «اللهم صل على محمد وآل محمد، وفرّغ قلبي لمحبتكف واشغَلهُ بذكرك، وانعَشهُ بخوفك وبالوجَل منك، وقوّه بالرغبة إليك، وأمِلهُ إلى طاعتك، واجرِ به في أحبّ السُبُل إليك، وذلّله بالرغبة فيما عندك أيام حياتي كلّها، واجعل تَقواك من الدنيا زادي، وإلى رحمتك رحلتي، وفي مرضاتك مَدخَلي، واجعل في جنّتك مثواي، وهب لي قوّة أحتمل بها جميعَ مَرضاتك، واجعل فِراري إليك، ورغبتي فيما عندك، وألبس قلبي الوَحشةَ من شِرار خَلقك، وهب لي الأنس بك وبأوليائك وأهل طاعتك، ولاتَجعَل لفاجرٍ ولا كافرٍ عليَّ منّة ، ولا له عندي يداً، ولا بي إليهم حاجة، بل اجعَل سكونَ قلبي، وأنسَ نفسي، واستغنائي وكفايتي بك وبخيار خلقك...»

إنه يجعل الانسان «يستشعر العزّة بالله والقوة بالله والغنى بالله» ويربّيه على أن لايكونَ مثلُهُ الأعلى إلا المحبة التامّة لله، وذكره وخوفه والرغبة إليه وطاعته وكسب مرضاته، والاستغناء والأنس به وبأوليائه، ويشير إليه بأفضل الزاد وأسمى الرحلَة، وأكرم الرغبة، وأنفع الأنس، ويفك عنه حصار ذلِّ منّةِ الفاسق والكافر، ونعمتِه والأنس به والحاجَة إليه...

والجوّ التعبيري للنص أيضا يلقي ظلال الاستغناء بالله وحده، ففيه تقديم كثير من المتعلّقات، الشيء الذي يدلّ على حصر جميع رغبته وأمنيته وحاجته في الله. ومع أنّ عنصر الإيقاع موجود في النص لايزال، إلا أنه يضعف أحياناً، كأنّ شدة شوق الإمام عليه السلام إلى

معبوده أنساه العناية الضخمة بتزيين النص الإيقاعي، ومع ذلك لا يخلو في كثير من فقراته من الموازنة، وفي فواصله من السجع.

وفي النص عناية بعنصر الصورة، وذلك لأنه لايتاح إبراز الحالات الوجدانية إلا من خلال عنصر «الصورة الفنية» نظراً لما تنطوي عليه طبيعة الصورة من إيحائات وكشوف ـ كما يعتقد الدكتور البستاني ـ؛ ففي النص صور مثل طلب (إنعاش القلب بخوف الله) و(إجرائه في أحبّ السبل إليه) كأنه إنسان، و(تذليله بالرغبة فيما عند الله)كأنه دابّة تُذلّل؛ و(جعل التقوى زاداً من الدنيا) لما في كلمة "الزاد" من إيحاء كبير ومعنىً دالّ؛ و(جعلِ رِحلَته إلى رحمته) كأنّ الرحمة مدينة تُرحَل إليها بالقوافل؛ و(في مرضاتك مدخلي) كأن المرضاة مكان يدخل فيه؛ و(إلباس القلب الوحشة من شرار الخلق) و(هدم جعل اليد للكافر الفاجر على وجوده) فإن قوة الكافر والفاجر بمثابة يد لهما يظلمان بهما الاخرين.

إذن فإن النص ذو عنصر صوري ملحوظٍ تظافرَ مع الإيقاع والتقديم، على إضفاء الجمال الأدبي على النص.

وإليك نص آخر (من دعائه عند الشدّة) في طلب الاستغناء بالله عن الناس منه، تشدّ نفس الانسان بالله وتجعله يستغني به عن الناس، بطلبه من الله كفاية جميع أموره، والتذكير بما يترتّب على اللجوء إلى الخلق: «...لاتَحظُر عليّ رزقي، ولاتكلني إلى خلقك، بل تَفَرّد بحاجتي، وتولَّ كفايتي، وانظُر إليّ، وانظُر لي في جميع أموري، فإنّك إن وَكلتَني إلى نفسي عَجَزتُ عنها، ولم أُقِم ما فيه مصلحتُها، وإن وَكلتَني إلى خلقك تجهّموني، وإن ألجَأتَني إلى قَرابتي حَرَموني، وإن أعطَوا أعطَوا قليلاً نَكداً، ومنّوا عليّ طويلاً وذمّوا كثيرا، فبفضلك اللهم فأغنِني، وبعظمتك فأنعِشني، وبِسَعَتِك فابسُط يدي، وبما عندك فاكفِني».

الملاحظ في هذا النص هو عرض الفكرة وفق ما يشبه قياساً منطقياً، فيتطلّب تبييناً واضحاً. فإنه يبدأ بطلب عدم الوُكول إلى الناس من الله، بل تولّيه حاجَتَه بنفسه، ذلك لأنّ وُكوله إلى نفسه يترتّب عليه العجز وعدم تشخيص مصلحته، والوكول إلى الخَلق يترتّب عليه التجهّم عليه، والحرمان والإعطاء القليل والمنّ والذمّ. فنتيجةً لما ذكر، يطلب من الله إغنائه بفضله وكفايتَه بما عنده. وهذا في الواقع، منهج تربوي سلكه الإمام عليه السلام لإنقاذ الناس من التماس الخلق فيما يطلبون، ببيان ما يترتّب عليه من الآثار السيئة، والتوجّه إلى الله في حوائجهم، فإنه يغنيهم ويكفيهم.

والملاحظ في النص من ناحية الفن، فالخصيصة الأولى هي الصورة، في تصوير ردّ فعل المسؤول عنهم، لا من خلال التشبيه أو الاستعارة و...، بل من خلال تصوير ردّ فعلهم، أي تبيينه بصورة بارزة (فالتصوير أعم من الاستعارة والتشبيه و..) فهو التجهّم، وإعطاء القليل النكد، والمنّ، والحرمان، والذمّ.

والخصيصة الثانية هي عنصر الإيقاع بأشكاله المختلفة، فإنّ هناك في النص توحّد الفواصل في أكثر من فقرتين، أو إزدواج الفقرتين (أي في كل فقرتين فحسب)؛ وذلك لطبيعة الفكرة المطروحة، فالفقرات المشتركة في الفكرة تتوحّد فواصلها، ويترتّب على توحّد الفكرة في الفقرات ثم توحّد قوافيها، تماثُلُها في الطول أو تقارُبُها. وهناك أيضاً تجانس صوتي من خلال تكرّر بعض الحروف في الفقرات المتّحدة الفكرة، مثل تكرار"إن": (إن وكلتني، إن ألجأتني، إن أعطوا)، وتكرار "ب" في: (بفضلك، بعظمتك، بسعتك، بما عندك) مما يؤدّي إلى الإيقاع.

وله عليه السلام من دعائه في التفزّع إلى الله في هذا المعنى يتذكر فيه عواقب الطلب والسؤال ممن سوى الله، من الضعة والفقر والذلّ والسفاهة والضلّة: «اللهم إني أخلصت بانقطاعي إليك، وأقبلتُ بكلّي عليك، وصرفتُ وجهي عمّن يحتاج إلى رفدك، وقَلَبتُ مسألَتي عمن لم يستغنِ عن فضلك، ورأيتُ أنّ طلب المحتاج إلى المحتاج سَفَهٌ من رأيه، وضلَّة من عقله. فكم قد رأيتُ يا إلهي من أناسٍ طلبوا العزّ بغيرك فذلّوا، وراموا الثروة من سواك فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فاتّضعوا، فصَحَّ بمعاينة أمثالهم حازمٌ وفّقَه اعتبارُه، وأرشَدَه إلى طريق ثوابه اختيارُه. فأنتَ مولاي دون كل مسؤولٍ موضعُ مسألتي، ودون كل مطلوبٍ إليه وليُّ حاجتي، أنت المخصوص قبل كل مدعوّ بدعوتي، لا يشركك أحدٌ في رجائي، ولا يتَّفِقُ أحدٌ معك في دعائي، ولاينظمِهُ وإياي ندائي».

في هذا النص يهدف الإمام إلى تعليم بحوثه التربوية بالتدرّج في عرضه. فالخطوة الأولى الانقطاع إلى الله والإقبال بكل الوجود عليه، الذي يتضمّن الانصراف عن كل المحتاجين إلى الله، ثم الاعتقاد بأنّ الاحتياج إلى الخلق المحتاجين سفهٌ وضلّة. ثم النظر إلى حال الذين افتقروا وذلّوا بسبب طلب الثروة والعزّ من الخلق المحتاجين. ثم النتيجة، وهي الاعتبار بحالهم بحكم الحزم، ما ينتج الإرشاد إلى الطريق الثواب وهو الطلب من الله وحده. ومن ثم فإن الله هو المدعو وموضع الرجاء دون الكل.

ومن الناحية الفنية، العناية بعنصر الصورة قليلة في النص، طالما تنصبّ العناية فيها على توضيح الأفكار بنحو جليّ ومحدّد، مع ذلك نجد أنّ العناصر اللفظية متوفرة في النص، وهي

تأكيد الجمل بإتيان الجمل المترادفة لها، لتثبيت المعنى في الذهن؛ وإحكام النص بالتدرّج في عرض الفوائد؛ وعنصر التضاد الكثير في مثل (أقبلت وصرفتُ وجهي؛ والعزّ وذلّوا؛ والثروة وافتقروا؛ والارتفاع واتضعوا)؛ وعنصر الدلالة الفنية لبعض الكلمات، والظلال التي تلقيها، مثل دلالة كلمة "كل" على العموم في (أقبلتُ ب"كلّي" عليك، أي بكل وجوده وما له؛ وأنت دون "كل" مسؤول موضع مسألتي، ودون "كل" مطلوب، وقبل "كل" مدعو...)، و"أحد": (لا يشركك "أحد" في رجائي)؛ و"الانقطاع" في: (أخلصتُ بانقطاعي إليك)، و"ال" في: (أنت المخصوص بدعوتي...) فكلها تلقي ظلالاً تناسب الجو الشعوري للنص، فضلاً عن العنصر الإيقاعي في الفواصل، وتوازن الفقرات، كلها متوفرة في النص.

ويقول عليه السلام من دعاءٍ إذا قُترَ عليه الرزق: «فصل على محمد وآله، وهب لي يقيناً صادقاً تكفينا به من مؤونة الطلب، وألهمنا ثقة خالصة تعفينا بها من شدّة النَصَب، واجعل ما صرَّحتَ به من عدَتِك في وحيك، وأتبَعتَه من قَسَمك في كتابك، قاطعاً لاهتمامنا بالرزق الذي تكفَّلتَ به، وحَسماً للاشتغال بما ضَمِنتَ الكفايةَ له، فقلتَ وقولك الحق الأصدق، وأقسَمتَ وقَسَمُك الأبرّ الأوفى: وفي السماء رزقُكم وما توعَدون، ثم قلتَ: فوربّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مثل ما أنّكم تنطقون».

إنه توجيه النفوس نحو أن الرزق مقسوم من جانب الله، وقد ضمن الرزقَ بنفسه سبحانه وتعالى، فلا معنى للحرص وطلب الحرام في سبيل الرزق، والذي يؤدي بالناس إلى الإيمان بهذا، هو يقينهم وثقتهم بالله، وبما وعده في كتابه من أن الله ضَمِنَ الرزق لعباده فقال: وفي السماء رزقكم....

والجانب الفني في النص: إحكامه من حيث نظامه الهندسي، فإنه يتكوّن من ثماني فقرات، كل فقرتين متشابهتان في نظامهما الهندسي، من حيث الطول (تقاربها أو تماثلها)، ثم تشابه محلّ الكلمات وموقعها، فالفعل مقابل الفعل، والحرف مقابل الحرف...، وتشابه إعرابها، ثم تجانسهما الصوتي من خلال توحّد قافيتيهما، ومن خلال تكرّر بعض الحروف في كليهما، ففي الأول (به، بها، ومن)، وفي الثانية (به، من ، في) وفي الثالثة (لِ ،بِ)، وفي الرابعة ترتّب النعتين على كل من كلمتيهما ("الحق الأصدق" على "قولك"، و"الأبر الأوفى" على "قسمك")، حتى كأن النص تحوَّل إلى قطعة شعرية ذات أربعة أبيات، والآيتين المتحدتين في فواصلهما، كلازمةٍ لهذه الأبيات. وبهذا صار العناية بالجانب الإيقاعي في النص كبيرة.

ومن دعائه عليه السلام في هذا المجال، دعائه في الرضا، يتطلّب فيه ضمن منهجه التربوي توجيه النفوس نحو نفي الفضل والشرف والعزّ عن امتلاك الثروة فحسب دون امتلاك سائر الفضائل، وليس العزّ الحقيقي إلا طاعة الله وعبوديته، وهو الثروة التي لاتنفد، لا تلك التي في أيدي الناس: «... واعصِمني من أن أظنَّ بذي عدمٍ خساسة، أو أظنَّ بصاحب ثروةٍ فضلاً، فإنّ الشريف من شرّفَته طاعتُك، والعزيز من أعزَّته عبادتُك. فصلّ على محمد وآله، ومَتِّعنا بثروةٍ لا تَنفَد، وأيدنا بعزٍّ لايفقَد، وأسرِحنا في مُلك الأبد، إنك أنت الواحد الأحد، الذي لم تلد ولم تولد، ولم يكن لك كفواً أحد».

إنه ترسيخ العزة في النفوس عن طريق التوجيه نحو الرضا بقسم الله وحكمه، فهذا هو الثروة. وإن الفقرة لتحتوي على أسمى مكارم الأخلاق، وهو أن الضعة ليست بعُدم المال، والفضل ليس بالثروة، بل الشرف والعزّ الحقيقيين هما طاعة الله وعبادته.

ومن حيث خصائص الفن، ففي الدعاء اهتمام بالدلالة الفنية في اختيار الكلمات في العبارتين: (متّعنا بثروة لاتَنفد، وأيدنا بعزّ لايفقد)؛ فإنّ الثروة مما يتطلّع إليه القلوب، و"الثروة التي لا تنفد"مما يتطلّع إليه النفوس أكثر من نفس الثروة؛ وكذلك "العزّ" مما فيه اشتياق الأهواء، و"العزّ الذي لا يفقد" فيه اشتياق الأهواء أكثر؛ وقد استخدمهما الإمام لإلقاء معانيهما التعليمية، فإنّهما تتضمّنان تربية ضمنية خفية للنفوس.

وهناك صورة قائمة على التشبيه البليغ في (ملك الأبد)، وهو صورة أخرى قائمة على الاستعارة المركبة في: (أسرحنا في ملك الأبد)...

وهناك عنصر إيقاعي ملحوظ في الفواصل (طاعتك، وعبادتك) و(لاتنفد ولايفقد) وفي أكثر من فاصلة (الأبد، الواحد، الأحد، الصمد، لم تلد، لم تولد، أحد)...

وهناك في النص عنصر لفظي قائم على التضاد في (ذي عدم، وصاحب ثروة)، وفي (خساسة، وفضلا)؛ والترادف في (طاعتك، وعبادتك) و(لاتنفد ولايفقد) و(الواحد والأحد)...فكل هذه تظافرت على توشيح الدعاء.

وانظر في دعائه الآخر في الإلحاح على الله تعالى يحصر فيه السؤال والإستغاثة والرجاء والدعاء واللجوء والإستعانة والتوكل والإتّكال من قبل الإنسان، في الله عزّ وجلّ: «...الهي أسئلك بحقّك الواجب على جميع خلقك، وباسمك العظيم، الذي أمرتَ رسولَك أن يسبّحك به، وبجلال وجهك الكريم، الذي لايبلى ولايتغَير، ولايحول ولايفنى، أن تُصَلّيَ على محمد وآل محمد، وأن

تُغنيني عن كل شيء بعبادتك، وأن تُسَلّيَ نفسي عن الدنيا بمخافتك، وأن تُثنيَني بالكثير من كرامتك برحمتك، فإليك أفرّ، ومنك أخاف، وبك أستغيث، وإياك أرجو، ولك أدعو، وإليك ألجأ، وبك أثِق، وإياك أستعين، وبك أومن، وعليك أتوكل، وعلى جودك وكرمك أتّكل...».

إنه أجزل القسم لأجزل الطلب! إمعان النظر في أسلوب الدعاء من نحو استفتاحه بالإقسامات العظيمة على الله بحقّه الواجب على جميع خلقه وباسمه العظيم، وتقييده بأمره رسولَه بتسبيحه بهذا الاسم، وبجلال وجهه الكريم.. والإتيان بالمترادفات في تقييده بصفات عدم البلي والتغيير والفناء والتحوّل...، يكشف عن حرص الإمام كل الحرص على توجيه النفوس نحو الاستغناء بالله، وتسلية النفوس عن الدنيا، باستعانة أساليب الحصر، والتأكيد بإتيان المترادفات. فالحصر في تقديم متعلقات الفعل بأجمعها: (إليك أفر، منك أخاف، بك أستغيث...)، والمترادفات في (أستغيث، أدعو، أرجو، أستعين، ألجأ، أتوكل، أتكل، أثق...)؛ وذلك بعرضٍ أدبي: أي تساوي طول الفقرات في بعض، مع مراعاة الفواصل: (أن تعينني... بعبادتك، وأن تسلّيَ... بمخافتك، وأن تثنيني... برحمتك)، ثم التنويع في الفواصل، بسبب وجود التنوع في استغاثاته بالله وطلبه منه: أفرّ، أستغيث، أخاف، أتوكل، أتكل، أدعو، أرجو، ألجأ، أستعين، أثق...

ومن دعائه عليه السلام في يوم عرفة، يعلّم فيه طلب : «املأ من فوائدك يدي، وسُق كرائمَ مَواهبك إليّ، وجاور بي الأطيبين من أوليائك في الجنان التي زينتها لأصفيائك، وجَلّلني شرائفَ نِحلَك في المقامات المُعَدَّة لأحبّائك، واجعل لي عندك مَقيلاً آوي إليه مطمئناً، ومَثابة أتبوَّأها وأقرُّ عيناً... واجمَع لي الغِنى والعفاف، والدعة والمُعافاة، والصحَّةَ والسعَة، ولا تُحبط حَسَناتي بما يشوبُها من مَعصيتك، ولا خلواتي بما يعرِضُ لي من نَزَعاتِ فتنَتِك، وصُن وجهي عن الطلب إلى أحد من العالمين، وذُبَّني عن التماس ما عند الفاسقين...»

فلنتأمل في هذه الفقرة حتى نلحظ مدى مطابقة اللفظ للمعنى، حيث يسأل من الله تعالى أكرم الأشياء وأجزلها (أي كرائم مواهبه، ومجاورة الأنبياء في الجنان، والمقامات المعدة لأحبائه) بعبارات جزلة وكلمات مفخَّمة. ويسأل الله مأوىً يسكن إليه فيه، فنجد في كلماتها الدعة والاطمئنان والسكون: (واجعل مقيلا آوي إليه مطمئنّاً، ومثابة أتبوّءُها وأقرّ عينا) مما تلقي ظلال الدعة واللطف.

ونلحظ في النص عنصر الصورة، هو الاستعارة في (املأ من فوائدك يدي) حيث شبّه الفوائد بأشياء تُصَبُّ في اليد؛ وفي(سُق كرائم مواهبك إليّ) فكأنّ المواهب خيل كريم تُهدى

إلى الانسان من جانب الله تعالى. هذا فضلاً عن عنصر الترادف من أجل التأكيد: (صن وجهي عن الطلب إلى أحد من العالمين ، وذبّني عن التماس ما عند الفاسقين) وذلك لهدفٍ توجيهي هو تثبيت معنى إنكار الطلب عن الآخرين في النفس؛ وعنصر إيقاعي ملحوظ في الفواصل (أوليائك، أصفيائك، أحبائك، مطمئناً وعيناً، السعة والصحة، معصيتك وفتنتك، العالمين والفاسقين) وفضلاً عن تساوي بعض الفقرات مع بعضها الآخر.

وله عليه السلام من دعاءٍ في المعونة على قضاء الدين، تهدف تعليم كيفية ترسيخ روح العزّة بالله في القلوب: «اللهم صل على محمد وآله، وهب لي العافية من دَينٍ تُخلِقُ به وَجهي، ويحار فيه ذهني، ويتشعَّبُ له فكري، ويطول بممارسته شُغلي، وأعوذ بك ياربّ من همّ الدين وشُغل الدين وسَهَره. فصل على محمد وآله، وأعِذني منه، وأستجير بك ياربّ من ذلّته في الحياة، ومن تَبِعَته بعد الوفاة، فصلّ على محمد وآله، وأجِرني منه بوُسعٍ فاضل أو كفاف واصل. اللهم صل على محمد وآله، واحجُبني عن السَرَف والإزدياد، وقوِّمني بالبَذل والاقتصاد، وعلِّمني حُسن التقدير، واقبِضني بلطفك عن التبذير، وأجرِ مِن أسباب الحلال أرزاقي، ووَجِّه في أبواب البرّ إنفاقي، وازوِ عنّي من المال ما يحدثُ لي مَخيلةً أو تأدّياً إلى بَغي، أو ما أتَعَقَّبُ منه طغيانا».

البناء الخارجي لهذا الدعاء يطبع بسمة الإحكام والإتقان، وانتظامه وفقَ نَسَقٍ هندسي محكم ـ كما يعتقد الدكتور البستاني ـ لأنه ـ على حسب تعبير الدكتور البستاني ـ يتضمَّن بُعداً موضوعياً يستهلّ به، يعني الصلاة على النبي وآله، وهو البُعد الموضوعي للدعاء ـ أي يطبعه الهدف العبادي المحض كما في الصلاة على النبي وآله، دون الحاجات الفردية ـ؛ ومزجُه بأدعية حول التخلُّص من الدَين وتبعاته، يجعل الدعاء ذا طابع موضوعي يتصاعد على الحاجات الفردية ويكسب الدعاءَ أهمّية كبيرة.

فهذا النص الدعائي يتضمّن أربعة مقاطع، كلها يبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويستوعب كلٌّ مقطع مجموعةً من الجملات الدعائية المتّحدة في الفكرة والموضوع. فالمقطع الأول بدأ بالصلاة على النبي وآله صلى الله عليه وآله وسلم ثم طلب العافية من الدَين وما يترتّب عليه من إخلاق الوجه والهمّ وشُغل الفكر والاستعاذة منه؛ والمقطع الثاني يبدأ أيضاً بالصلاة على النبي وآله صلى الله عليه وآله وسلم والاستعاذة من ذلّته في الحياة وتَبِعَته بعد الوفاة؛ ثم يأتي المقطع الثالث فيبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطلب التخلص من هذا الدين بالوُسع والكفاف في المال؛ ثم

المقطع الرابع يبدأ بالصلاة على النبي وآله ﷺ كذلك، ثم يأتي طلب إبعاده عن الاسراف والتبذير، وتقويمه بالإقتصاد وحُسن التقدير ، بل أكثر من ذلك وهو توفّر رزقه من الحلال، وطلب الإنفاق في سبيل البرّ، وإبعاده عن مال يؤدي به إلى البغي والطغيان. فهذا النمط من الدعاء قد جَعل من فقرة (اللهم صل على محمد وآل محمد) ـ على حسب تعبير الدكتور البستاني ـ محطة موضوعية ينتهي إليها، وكل مقطع يتناول موضوعا مستقلا.

ومن حيث البناء الداخلي، يتضمّن النصُّ التنامي العضوي ـ على حسب تعبير الدكتور البستاني ـ بين هذه المقاطع الأربعة، فالمقطع الأول في بيان تبعات الدَين، من الهمّ وتشعّب الفكر وشغله به، والمقطع الثاني الاستعاذة والاستجارة بالله من هذه التبعات، أي الذلة في الحياة وتبعاتها بعد الوفاة، والمقطع الثالث في الاستجارة منه بالمال الوافر الكافي؛ والمقطع الرابع طلب الإجارة منه بالتنحي عن الإسراف، وطلب التقويم بالإقتصاد، وطلب توفيره بالحلال وإنفاقه في البرّ، وإبعاد مالٍ يحدث الطغيان عنه. وهكذا يترتّب كل مقطع على سابقه.

ومن عناصر هذا الدعاء الإيقاع، وهو توحد الفقرات المتّحدة الفكرة في فواصلها، تبعاً لتوحّد موضوعها، حتى تُلاحَظ في أكثر هذه الفقرات وحدةُ الوزن والقافية أو الفاصلة، وهو الترصيع.

ومما يلاحَظ في صياغته أيضاً توفُّر عنصر التضاد والتطابق فيه، ك (الحياة والوفاة، والسرف والإقتصاد والتبذير، والبرّ والبغي والطغيان)؛ وهذا مما له دور في توشيح النص وإضفاء الجمال اللفظي عليه.

ومن دعائه عليه السلام في هذا المعنى، من دعائه في ذكر التوبة وطلبها، يتطلّب فيه العزّ عبر التذلّل إلى الله سبحانه وتعالى: «... وافعَل بي فعلَ عزيزٍ تضرَّع إليه عبدٌ ذليلٌ فَرَحِمَه، أو غنيٍّ تعرَّضَ له عبدٌ فقيرٌ فَنَعَشَه. اللهم لاخَفيرَ لي منك، فليخفُرني عزُّك، ولاشَفيعَ لي إليك، فليشفَع لي فضلُك، وقد أوجَلَتني خطاياي فليؤمنّي عفوُك...».

إنه أذلّ موقف للعبد وأخضعه، أمام أعزّ معبود وأغناه! أراد الإمام التوجيه نحو أنه لايوجَد مُجيرٌ ولاشَفيعٌ من دون الله. واستعان لإلقاء هذا المعنى بصور فنية: التشبيه في تصوير عبد ذليل إلى مولى عزيز فترحّم له، وتصوير ظهور عبد فقير لشخص غني فأناله من ثروته؛ والمجاز العقلي في انتساب الإجارة إلى العزّ، وانتساب الشفاعة إلى الفضل، وانتساب التأمين إلى العفو. والدعاء حافل بعنصر إيقاعي ضخم من خلال توازن الفقرات وتوحّد الفواصل، ومن خلال تكرّر بعض الحروف والكلمات (ف، لا، لي) التي تكرّرت في أكثر من فقرة، مقابل تكرارها في الفقرة المقابلة.

ومن هذا (من دعائه عليه السلام في دفع كيد الأعداء)، وفيه استشعار الغنى بالله بتذكار النعم: «... وكم من سحائب مكروهٍ جلّيتَها عنّي، وسَحائبَ نِعَمٍ أمطرتَها عليّ، وجَداولَ رحمةٍ نشرتَها، وعافيةٍ ألبَستَها، وأعين أحداثٍ طَمَستَها، وغواشيَ كرُباتٍ كشَفتَها، وكم من حُسن ظنٍّ حَقّقتَ، وعدمٍ جَبَرتَ، وصَرعَةٍ أنعَشتَ، ومَسكنَةٍ حوَّلتَ، كلُّ ذلك إنعاماً وتطوّلاً منك، وفي جميعه انهماكاً مني على معاصيك، لم تمنَعك إسائَتي عن إتمام إحسانك، ولا حَجَرَني ذلك عن ارتكاب مَساخِطك، لاتُسأَلُ عما تفعَل، ولقد سُئِلتَ فأعطيتَ، ولم تُسأل فابتدأت، واستُميحَ فضلُك فما أكديتَ، أبيتَ يا مولاي إلا إحساناً وامتنانا، وتطوّلاً وإنعاماً، وأبيتُ إلا تَقَحُّماً لحُرُماتك، وتعدّياً لحدودك، وغفلةً عن وَعيدك، فلك الحمدُ يا إلهي من مقتَدرٍ لايغلَب، وذي أناةٍ لايعجَل...».

إنه التذكير بشتّى نعم الله وألطافه على الانسان، من فتح باب النعمات، ودفع الكرُبات، وتحقيق الرجاء، وإقالة العثرة، والإبتداء بالإحسان، مع إتيان الإسائة من قبل العبد، ما يشدّ الإنسان بخالقه الكريم، ويجعله يستشعر العزة به، ويسأل النعمة منه فحسب.

والعناصر الجمالية في صياغة هذا الدعاء، هي عنصر الإيقاع في الدرجة الأولى، فجُعلت القرارات بعضها متحدة الفواصل مع بعض بتوحّد الفكرة فيها، والقيمة الإيقاعية فيها ليس من خلال توحّد القوافي فحسب، بل من خلال توازن الفقرات في بعضها أيضاً، فأشبهت مقطوعات شعرية.

وفي الدرجة الثانية، عنصر الصورة وما فيه من كبير قيمة فنية في إيصال المراد بإيحائاتها، كما في (تجلية سحائب المكروه عنه) ففي هذا التشبيه إيحاء بحيلولة تلك المكروهات دون وصول الخير والدعة إلى الانسان، كما تحول السحائب السود دون وصول ضوء الشمس إلى الأرض، وتسبّب الخوف الشديد برعودها وبروقها، كما هو شأن المكروهات؛ و(إمطار سحائب النعم) ففي الإمطار إيحاء على شمول النعم، وما فيها من الإضفاء على الحياة، كما هو الشأن في النعم؛ و(نشر جداول الرحمة) فالجداول تجري في جميع أنحاء الأرض وتُنعِش الجميع، كما الرحمة تجري في جميع جوانب حياة الانسان وتعطيها الروح؛ و(إلباس العافية) ففيه أيحاء بشمول العافية والتزامها، فاللباس ما يشمل البدن ويلتزمه، وكذلك العافية تعمّ جميع جوانب الحياة والبدن وتلتزمها؛ (والذهاب بأعين الحوادث) استعارة عن سلب التأثير عنها، كما العديم البصر لايرى الانسانَ.

وفي النهاية تعبير ثان عن ترسيخ العزة في النفوس باللجوء إلى الله والإلحاح في سؤاله (في مناجاة المعتصمين): «إن لم أعُذ بعزّتك فبمن ألوذ؟ وإن لم ألذ بقدرتك فبمن ألوذ؟

وقد ألجأتني الذنوب إلى التشبّث بأذيال عفوك، وأحوجَتني الخطايا إلى استفتاح أبواب صفحك، ودَعَتني الإساءَةُ إلى الإناخةِ بفناء عزّك، وحَمَلَتني المَخافةُ من نقِمَتك على التمسُّك بعُروة عفوك، وما حقٌّ من اعتصم بحبلك أن يخذَل، ولا يليق بمن استجار بعزّك أن يسلَم أو يمهَل. إلهي فلا تُخلِنا من حمايتك، ولاتُعرِنا من رعايتك وذُدنا عن مَوارد الهلكة، فإنا بعينك وفي كنَفك ولك...».

ولايزال العناصر الجمالية تلعب دورها في تزيين فني للنص، وإضفاء الجمال عليه، فالاستفهام الإنكاري في (بمن ألوذ؟) يوحي بأشدّ النفي، وعنصر الإيقاع متكوّناً من توحّد الفواصل متعاوناً مع توازن الفقرات، ومن التقفية في أكثر من الفواصل مثل (بعينك، كنفك، لك)، والتجانس الصوتي المتوفّر في تكرّر بعض الكلمات مثل (إن، لم، إلى، مَن، أن، مِن) متوفّر في النص يعمل في تزيين القرائة، بصفتها الميزة الأساسية للدعاء؛ وعنصر الصورة المتوفر في (التشبّث بأذيال العفو) و(التمسك بعروة العفو) و(طرق أبواب الصفح ليفتح) و(الإناخة بفناء العزّ) و(الإعتصام بحبله) و(الاستجارة بعزه)، تعمل بإيحائاتها المشحونة في التراكيب، على تقديم فوائدها الفنية.

النتيجة

نستخلص مما سبق أنّ أدب الدعاء عند الإمام السجاد عليه السلام ليس يعني هدفاً عبادياً فحسب، مما يشبع الحاجات الروحية، بل وسيلة لطرح قضايا أخرى سياسية واجتماعية وأخلاقية وغيرها، واجه به الإمام عليه السلام موجة المجون العام والأدب العقائدي المنحرف اللذين تحرّكا في هذا العصر تحرّكاً واسعاً نتيجة لفساد البلاط الأموي. ومن الأهداف الهامّة للدعاء عند الإمام عليه السلام استعادة العزّة إلى المجتمع الإسلامي، فيبعث الانسان على التخلص من هوان التذليل أمام الغير، باستشعار العزة بالله وعبوديته سبحانه؛ وقد حفل هذا الدعاء بعناصر أدبية مختلفة، من عنصر الإيقاع، وهو أهم عنصر في الدعاء، لأن الدعاء يختصّ بالقرائة؛ وعنصر الصورة الفنية الدالّة العميقة في معناها، وبعناصر لفظية مثل التضاد والترادف والتأكيد والسجع وغير ذلك من أساليب له دور في توشيح النص الدعائي.

المصادر والمراجع

١. الصحيفة السجادية (١٤١٧هـ). قم: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

٢. ابن أبي الحديد (١٩٦١م). شرح نهج البلاغة. تحقيق ابوالفضل إبراهيم، [دون مك]: دار إحياء الكتب العربية.

٣. أمين، أحمد (١٣٣٧ش). پرتو اسلام. ترجمة عباس خليلي، ط ٢، طهران: انتشارات شركت نسبي حاج محمد حسين اقبال وشركا.

٤. آذرشب، محمد علي (١٣٨٢ش). الأدب العربي وتاريخه حتى نهاية العصر الأموي. ط ٥، طهران: سمت.

٥. البستاني، محمود (١٤١٣هـ). تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي. مشهد: آستان قدس رضوي، بنياد پژوهش‌هاي اسلامي.

٦. حسن إبراهيم، حسن (١٩٥٣م). تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي. ج ١، ط ٣، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

٧. شمس الدين، محمد مهدي (دون تا). ثورة الحسين (ظروفها الإجتماعية وآثارها الإنسانية).

٨. المسعودي، علي بن حسين (١٣٤٦هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ. ج ٢، القاهرة: المطبعة البهية.